الباب السابع

في انتشار الدَّعوة

obeikandl.com

obeikandl.com

انتشار الدَّعوة في الوثنيّين

شهرة باطلة

استقرّ في أذهان كثير من الناس المسلمين وغيرهم، أن الدعوة المحمدية ظهرت وانتشرت تحت ظلال السيوف، وأن القبائل التي حملت كتاب الله في رقابها حملت سيوف الحقِّ في أيديها، وانطلقت للمغرب والمشرق، فحكَّمَتْ السيف حتى دان الناسُ للكتاب المعلَّق في الرقاب، وليس أبعَدَ من الصواب، ولا أدَلَّ على البحث السطحيّ المعتلّ من هذا الظن؛ لهذا يحسُن أن نتناول هذا الأمر بشيء من الإفاضة، وتَتَبُّعِ انتشار الدعوة في العصور المختلفة؛ ليستقرَّ الحق في نصابه، ويتبين الرُّشد من الغيّ، ولعل ذيوع هذه الفكرة الخاطئة عن انتشار الدعوة المحمدية بالسيف جاء من اقتران ظهورها خارج الجزيرة العربية بظهور الدولة الإسلامية.

خلط بين انتشار الدعوة وامتداد الدولة

وامتزاج تاريخ الفتوحات السياسية والدوْلِيَّة بتاريخ الفتح الدينيِّ؛ مما جعل الناس يَخلِطُون بين دخول الأقوام في الإيمان وقبولهم لرسالة التوحيد، وبين خضوعهم لسلطان الأمة الجديدة التي كانت السابقة إلى قبول الرسالة المحمدية.

فتح مكة بجيش المطرودين

وقد نسي الناس أن الفتح المحمديَّ لمكة وغيرها، إنما كان بجيش قوامه آلاف المستضعفين المهتدين قبل هذا الفتح، ممن أسلموا سرًّا واضْطُهِدُوا جهرًا، وهَاجَرُوا من أوطانهم قهرًا، وعَبَرُوا البحر مرتين لاجئين إلى الحبشة، وفرُّوا إلى المدينة، واحتَمَوْا في جوار كل ذي حَوْل أو طَوْلٍ.

الدعوة السرية والجهرية

دعا محمدٌ ﷺ أول ما دعا إلى الإسلام آل بيته؛ فمنهم من آمن، ومنهم من عصى، دعا سرًّا فدخل في دعوته من أشراف القوم وصناديد الجاهلية، كما دخل جماعةٌ من المستضعفين والعبيد، ولم يستطع هؤلاء وهؤلاء أن يحموا رسولهم، وألجأته قريش إلى قبول النفي الاختياريِّ مع آله في الشّعب، حيث

بَقُوا حِقْبَةً من الزمن مقاطعين منبوذين من أهل مكة وأحابيشها وأشياعها من ثقيف وغيرها، ثم خرج من هذا الحصار، وقد فقد زوجه وعمه، وأخذ يَعْرِضُ نفسه على القبائل، ورجع مهيض الجناح من «الطائف»، ولم يستطع دخول بلده إلا في حماية المطعم بن عدى من كفار قريش، وقد أجاره نخوة ومروءة.

مشروعية الدفاع عن النفس

وما زال يدعو سرًّا وجهرًا، وينال أصناف الأذى في نفسه وأتباعه، حتى لقي أهل البيعة الأولى من شبان المدينة في موسم الحجِّ، فحبّبُوا إليه الهجرة إلى وطنهم؛ إلى أحضان «يثرب» الموالية، ولم يتركه خصومه في ملجئه، فلما بسطوا أيدي الشرّ إلى أطراف الواحة التي نزل بها، خرج إليهم والتقى بهم في «بدر»، وقد أُذِنَ له بالقتال بهذه الآية الجليلة: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٣٩ ـ ٤١].

والآية في صراحتها وبساطتها وتعليليها للإذن بالقتال، وتحديدها الغرض منه، وفي سياقها كلِّه، واضحةٌ في تصوير الحالة تصويرًا ينافي تمامًا ما علق في أذهان كثيرة من صورة الكتاب والسيف متلازمين.

استمر الرسولُ قبل واقعة بدر خمس عشرة سنة يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة، يصبر على الظلم؛ فلما لم يبق إلا الدفاع عن النفس بالقوة، جاء إذن الله، ووقعت الواقعة في بدر، وأذلَّ المستضعفون الجبابرة، وضَمَّ جوفُ القليبِ[1] من فحول قريش من كانوا على مرّ السنين ينوّعون وسائل التعذيب للذين يدخلون في دين الله إيمانًا واحتسابًا.

الموقف في الحديبية يشهد

ومع ذلك فقد رجع الرسولُ إلى المدينة صابرًا داعيًا، فلم تصبر قريش ومن معها، وعادُوا لمهاجمته في نفس المدينة، ولما كانت «الحُدَيْبية» اغتنم الرسول الفرصة للهدنة، ورَضِيَ بشروط لم يكن ليرضاها لو كان عمادُ دعوته السيف، فإن تلك الشروط لم تُرْضِ حَمَلَةَ السيوف من أنصاره، واعتبروها هوانًا ولَمَّا يقاتلوا ولما يُغْلَبُوا، ولكنه ﷺ كان يعلم أن دعوته إنما يمنعها من الانتشار السيفُ، ولا يبسطها

---

(١) البئر التي دفنت فيها جثث قتلى بدر من المشركين.

في الناس سيفٌ، فإذا هو هادَنَ وسالَمَ غلَبَ، وذلك ما كان: فقد كانت هدنة «الحديبية» فتحًا، وكان هذا العَقْدُ الظاهرُ الغَبْنِ الذي عُقِدَ للحصول على السلم بشرائط تبدو مُذِلّةً سببًا لانتشار الدعوة، وقد نزلت سورة الفتح بعد الحديبية، وتحققت الآية، ودخل الناس في أيام الهدنة أفواجًا في دين الله الذي قام بالدعوة، والذي أُحِلَّ فيه القتالُ لحرية هذه الدعوة ولا شيءَ غيرها.

تاريخ الدعوة هو تاريخ الصبر والمقاومة

فتاريخ الدعوة في الجزيرة العربية هو تاريخ المسلمين الصابرين، وكل تَعَقُّب لتفصيلات التاريخ الإسلامي يكشف لنا عن هذه الحقيقة، ويؤيد عمل النبي، ويحقق قوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، وقوله: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

الموقف في خارج الجزيرة

قد يقول بعضُ الناس: إذا كان هذا شأن الرسول في مكة والمدينة، يصبر على الأذى، ويرجِّح السلم حتى بشروط لم تُرْضِ أنصاره، فما الذي دعاه للخروج من قلب الجزيرة العربية، وسَوْقِ الجيوش لقتال الرومان في سوريا؟ أليس الرغبة في تحكيم السيف؟.

رواية الكولونيل بيك

ذلك ما قد يظنه بعض من لا يعرفون كيف ابتدأت الحربُ بين النبيّ والروم وأنصارهم من العرب، وإليكم رواية الكولونيل «فريدريك بيك» في مؤلَّفِه الحديث «تاريخ شرق الأردن وقبائلها»، وقد اعتمد الكولونيل بيك على مراجع محترمة من كتب المسلمين وغيرهم، وأشار إليها في كتابه، قال في صفحة ٨٥: «في عام ٦٢٧ ـ ٦٢٨م «٦هـ» استشهد أول مسلم في شرق الأردن بسبب إسلامه: ذلك أن فروة بن عمرو الجذامي عامل الروم على «عَمّان» ـ وفي رواية ابن هشام على معان ـ كان قد اعتنق الدين الإسلاميَّ، وأرسل مع مسعود بن سعد الجُذامي بغلًا أشهب وفرسًا وحمارًا وأقمصةً كَتَّانيةً وعباءة حريرية هدية للنبي، ولما بلغ الرومان ذلك حاولوا عبثًا إقناع فروة ليرتد عن إسلامه فأبى، فما كان منهم إلا أن سجنوه، ثم صلَبُوه على ماء يقال له «عفري» بفلسطين.

فتنة واعتداء

وفي تموز «يوليو» عام ٦٢٩م «٨هـ» أوفد النبي كتيبةً من خمسة عشر رجلًا إلى حدود شرق الأردن؛

ليدعوا الناس إلى الدين الحنيف، وليستطلعوا أخبار الروم وحوادثهم، فخرج عليهم جمع غفيرٌ في مكان يقال له «طلة» بين الكرك والطفيلة، وقتلوهم كلَّهم إلا واحدًا لاذ بالفرار.

وبنفس الوقت أرسل النبي رسولًا اسمه الحارث بن عُمَيْرٍ إلى أمير غسان في سوريا يدعوه إلى الإسلام، فقبض عليه شُرَحْبِيلُ بنُ عَمْرو سيدُ «مؤتة»، وهي قرية بجوار الكرك وقتله.

تجمع وتهديد

وحوالي هذا الزمن أيضًا وصلت رسل النبيِّ من الشمال تحمل أخبار الاستعدادات الحربية على تخوم الولايات الرومانية، ووجود «هرقل» وجيشه في الكرك مع حلفائه من بهراء وجُذام وبَلِيّ والبلقاوية.

كل هذه الأسباب جعلت النبيَّ يَعْقِدْ النية على بعث حَمْلَة إلى جنوب شرق الأردن؛ ليقتصَّ من قَتَلَة الحارث، وليختبر قوة أعدائه واستعدادهم، وليَعرفَ أسباب تجمعهم على الحدود الجنوبية.

مع الروم في شرق الأردن «مؤتة»

وفي أيلول «سبتمبر» عام ٦٢٩م «٨هـ» جمع النبيُّ ثلاثة آلاف مقاتل في «الجَوْف» قرب المدينة؛ ليسيرهم نحو سوريا، وأمَّر عليهم زيد بن حارثة، «فإن أصابه قَدَرٌ فالأميرُ جعفرُ بنُ أبي طالب، فإن أصابه قَدَرٌ فالأمير عبد الله بن رواحةَ على الناس، فإن أصيب فليرتض المسلمون برجل من بينهم يجعلونه أميرًا عليهم».

فمضى الجيش حتى إذا كان بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من روم وعرب، واقتتل الفريقان في قرية «مؤتة» بجوار الكرك.

استبسل المسلمون في هذه المعركة، بالرغم من قلّة عددهم بالنسبة لعدوهم، فلما استشهد أميرُهم زيدُ بنُ حارثة تولى جعفرٌ كما وصاهم النبي، فقطعت يمناه، وكان بها اللواء، فأخذه بشماله، فقُطعت، فاحتضنه بعضُدَيْه حتى قُتِل، وكان فيه نحو خمسين جُرحًا. فلما نُمِيَ ذلك إلى النبي ﷺ قال: «أثابه الله بجناحين في الجنة يطير بهما حيث شاء»، فأصبح يُعرَف فيما بعدُ بجعفر الطيّار.

وبعد جعفر أخذ الراية عبد الله بن رَوَاحةَ، فقاتل حتى قُتِل، وتولى خالد بن الوليد وانسحب بالجيش إلى المدينة.

تلك رواية الكولونيل «بيك» عن كيفية وقوع الحرب بين النبي والروم، وهي واضحةٌ في أن الروم صلبوا «فروة» لما أبى أن يرتَّدَّ، وهي واضحة كذلك في بيان الاضطهاد والغيرة التي استولت على أفكارهم وأعمالهم، ولا مجال للشك في أن الروم وأنصارهم من العرب لما أخذتهم العزة والخوف من

الدعوة السلمية، لجأوا إلى العنف، بل إلى القسوة والغدر، ولم يكن بدٌّ لصاحب الدعوة من أن يدفع الشرَّ عنها، ويقاتلَ في سبيل حريتها.

دليل فذ من أدلة التسامح الإسلامي

ومما يرويه المؤرخُ المذكور أيضًا أن أسرة مسيحيةً تدعى «العزيزات» كانت تعيش في مؤتة، فلما قدم الجيش الإسلاميُّ خرج أخوان من هذه الأسرة للقائه، وفتحا أبواب القرية، وقدّما له الطعام والشراب، ثم اعتنق أحدهما الإسلام وبقي الآخرُ على نصرانيته، فأمر النبي ألّا يستوفى منهما ولا من أعقابهما جزيةٌ ولا خراجٌ، وظل أمر النبي نافذًا مدة ألف وثلاثمائة سنة، وقد أخذت الحكومة التركية تحصِّلُ منهم الأموال الأميرية بعد سنة ١٩١١ فقط، لما ثار أهل الكرك، والعزيزات يقطنون اليوم «مادبا»، وهم من أقوى العشائر.

ومغزى هذه الحادثة واضحٌ؛ فقد أمر النبي ألّا تؤخذ جزية ولا خراج من بعض المسيحين وأعقابهم؛ لأنهم أحسنوا لقاء جنوده، واحترم المسلمون هذه الرغبة مئات السنين، وهي في ذاتها دليل تسامح يستحيل معه أن يكون السيف وسيلة الدعوة وهادي الإيمان(*).

فتح مكة

أما ما كان من فتح مكة بالقوة فنظرةٌ عاجلة في تطور النزاع بين محمد ﷺ وعشيرته قريش، كافيةٌ لإقرار الحقّ في نصابه، وأنه لم يكن مفرٌّ من تحكيم السيف بين الفريقين، حتى لو لم يكن محمد رسولًا وكان رجلًا كريمًا عزيزًا أُخرِج من وطنه، وأُخرِج معه كل من قال برأيه.

لم يكن مفر من تحكيم السيف في فتحها

يقول القرآن على لسان قريش: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآ ﴾ [القصص: ٥٧]؛

(*) نضيف لما قاله المؤلف ـ رحمه الله ـ أن الإسلام ينتشر اليوم في أوروبا وأمريكا بدون سيف ولا أي قوة سوى تأثير دين رب العالمين في النفوس الحرة الباحثة عن الحقيقة، ويتم ذلك في بيئة أكثرها معاد للإسلام والمسلمين، وخاصة أوروبا التي حملت لواء الهجوم على محمد ﷺ والإسلام والمسلمين منذ أكثر من عشرة قرون، ولم تتوان الكنيسة الكاثوليكية والمستشرقون الذين خدموها وخدموا الاستعمار في تزييف شتى التهم، ومنها انتشار الإسلام بالسيف، وفي الحقيقة من يقرأ تاريخ المسيحية يجد إجبار الكثير من القبائل في أوروبا عليها أو مثلهم بالسيف، وأوضح أمثلة ذلك محاكم التفتيش التي دامت عدة قرون في إسپانيا وإيطاليا وفرنسا.
ونختم هذا التعليق بمقارنة دخول التجار المسلمين إلى شرق آسيا (إندونيسيا وماليزيا وتايلاند والفلبين والصين، حيث أسلم هناك ما يزيد على عدد العرب المسلمين بدون معركة واحدة ولا سيف واحد)، ودخول الهولنديين والبرتغاليين والإنجليز المسيحيين إلى تلك المناطق، وما سفكوه من دماء بريئة لأكثر من ثلاثة قرون.

obeikandi.com

فقريشٌ التي أقامت لنفسها سيادة دينية على العرب بسَدانةِ الكعبة ورعاية الحجِّ، وحراسة أوثان العرب وآلهتها، والتي اتخذت هذا المقام وسيلة لنفوذ سياسيٍّ واقتصاديّ في كل الجزيرة العربية، والتي كانت تُدرِك ضعفَها، وأن هذه السيطرة التي لا تتناسبُ مع عددها ومَقرِّها إنما ترتكزُ على النظام الجاهليِّ الذي يدعو محمد لتقويضه، والذي عبرت هذه الآية أصدق تعبير عن إخلاص قريش له؛ فلو أنها تَبِعَت هدي محمد لهانت وذلت كما تدّعي، قريشٌ هذه أنّى لها أن تصبر على هذا الداعي ودعوته! لذلك حكَّمت من أول الأمر القوة.

ولما اقتتلت خزاعةُ وبكرٌ بعد صلح الحديبية لم تصبرْ قريش عن نصرة بكر، ولم تَرْعَ هدنةً ولا احترمت ميثاقًا، بل عادت إلى تحكيم السيف فقبل الرسول هذا التحدّيَ، وترك للسيف أن يحكم في نزاع دام عشرين سنةً، وقد حكم للمسلمين يوم الفتح، على أن الرواية التاريخية تذكر أن النبي ﷺ أمر قوّاد جيشه بعدم القتال إلا أن يُقَاتَلوا. ومعاملته لقريش يوم الفتح دليل قاطع على أن السيف لم يكن وسيلة للدعوة.

الغرض من فتحها

فلم يكن الإكراه في الدينِ ولا قهرُ الناس على الإسلام هو سبب القتال في مكة التي حرّم الله القتال فيها، والتي يقول الرسول إنها أبيحت له ساعةً من نهار هي بعدها حرامٌ، وإنما كان الغرض أن يوضع حدٌّ للاضطهاد الدينيّ، وأن يباح للناس حقُّ اختيار العقيدة من غير إكراه ولا قهر.

صورة من التسامح المحمدي

ولذلك لما سأل صفوانُ بن أمية الرسول ﷺ أن يكون له الخِيار في مغادرة مكة أو الإسلام لمدة شهرين بعد الفتح قال: «بل أنت فيه بالخيار أربعة»، وكان صفوانُ وأبوه أمية بن خلف ممن أساءوا للمسلمين أشدَّ إساءة، يعذبون ضعفاءهم، ويستهزئون بنبيّهم؛ فكان أميةُ يسخر ويَفُتُّ العظام البالية في يده ويقول: «يزعمُ محمد أن هذه تحيا مرة أخرى!» فنزلت الآية: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨ ـ ٧٩]. فمع ذلك التاريخ السيئ الطويل يطلبُ منه صفوانُ أن يترك له الخيار في الدين فيسمح له بعد الفتح والغلبة التامة، فهل هذا شأنُ من يقيم دينه بالسيف؟!.

دليل على انهيار النظام الجاهلي

لم يُقْتل في موقعة مكة إلا بضعة عشر شخصًا، مع عظم الجيوش المقاتلة؛ فلقد كان جيش الإسلام

وحده مقدرًا بعشرة آلاف، مما يدلُّ على أن النظام الجاهليَّ قد انهار أمام الدعوة المحمدية قبل يوم الفتح، وأن عصابة قريش لم تستطعْ أن تستنهض للقتال جمهرة الناس بعد أن نفذت العقيدة المحمدية إلى صدورهم، وإلا كيف تستطيعُ تفسيرَ استسلام مكة بهذه السهولة ولمّا تُغلَب؟! وآخرُ وقائعها ذلك النصرُ في «أُحُد» بعد «بدر»، وكيف تفسر دخول الناس في دين الله أفواجًا بين يوم وليلة، وهم الذين كانوا يقولون: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ [القصص: ٥٧]؟.

الفتح السلمي قبل الفتح الحربي

لا شك أن أيام الهدنة بعد الحُدَيْبيةِ لم تُقْضَ عبثًا، وأن الدعوة وجدت في ظلال السلْم سبيلَها للنفوس التي تهيأت لقبول الحقِّ، وأن زعماءَ قريش قد أحسُّوا الأرض قد زُلْزِلَتْ تحت أقدامِهم، وأن العامةَ مالت للحنيفيّة السمْحَةِ، وإلا فما الذي جعل أبا سفيانَ يُسْلِمُ ليلةَ الفتح؟

دليل من إسلام أبي سفيان زعيم المشركين

ويتوسل بالعباس إلى ابن أخيه، لو كانت مكةُ لا تزال تؤمن بالنظام الجاهليِّ، أليس أبو سفيانَ هو الذي حمل راية الحرب جيلًا في وجه هذه الدعوة؟ ثم أليست هوازنُ وثقيفٌ حلفاؤهُ لا يزالون في مَنَعَتِهم، حتى لقد كادُوا بعد الفتح يوم «حُنَين» أن يفعلوا بجيش الإسلام الأفاعيل ويقتلوا الرسول؟ فما بالُ أبي سفيانَ وغيره من الزعماء لا يَنْحازُون بأتباعهم إلى حلفائهم ويديموا القتال، والعربُ بطبيعتهم صلاب العُود مَرِيرُو العداوة يُديمونها جيلًا بعد جيل؟ السبب واضح: هو أن مكةَ قد أسلمت وانقادت للدعوة قبل أن يدخل أرضها جيش خصومها من أهل «يثرب» وَمَنْ حولها من الأعراب.

فحتى فتحُ مكة الذي يظنه بعضُ الناس حادثًا عسكريًّا ترتب عليه إسلامُها قهرًا، لم يكن إلا وسيلة لكفِّ الأيدي الباطشة عن أهلها؛ ليُعْلِنُوا إيمانهم ويدخلوا في الدعوة التي مالُوا إليها سرًّا أفواجًا أفواجًا.

الوفود تتوالى من الجزيرة باختيارها على الرسول

ثم بعد فتح مكةَ نجدُ الوفود من أطراف هذه الأرض الواسعة المترامية تتوالى على المدينة، من اليمن ونجران وكِنْدةَ والبحرين وشمال الجزيرة ومن نجد وتهامةَ، ومن كل ناحية؛ وتدخل فيها إيمانًا واحتسابًا.

الخدمة الوحيدة التي أداها السيف للإسلام

فماذا كان قدرُ السيف ليرُدَّ الناس عن دينهم، وبينه وبينهم مسيرةُ الشهور، وهم في مَنَعة بعددهم

وعُدَّتهم؟ إن الخدمة الوحيدة التي أدّاها السيفُ للإسلام هو أنه منع الرسول في المدينة من أن يقع فريسة لخُصومه من العرب واليهود والروم، فمكّنَ له بذلك من نشر دعوته وإيصالها إلى العقول والقلوب.

وإدراكُ الرسول قوة الدعوة في ظلال السلم، هو الذي دعاه كما قلنا لإمضاء صلح الحديبية، والمسلمون بعد الرسول إنما أطاعوا الله ورسوله، حيث جعلوا للناس الخيار بين الإسلام والجزية، إذا لم يحكموا السيف في رقاب المسلمين، ولم يَحُولوا بين الناس واختيار العقيدة التي يَلقَوْن الله علَيها.

ولو كان السيف وسيلة الدعوة ما كان للناس خيارُ، وما اشترى أيُّ إنسان في البلاد المفتوحة دينه بدينار أو بنصف دينار، والدين الذي يساوي عند صاحبه دينارًا فالإسلامُ أولى بصاحبه منه.

كان الناس في البلاد المفتوحة يعصمون أنفسهم وأموالهم ودينهم من قهر السيف بجزية هي «ضريبة شخصية» يدفعها القادرون منهم لولاة المسلمين، فيكفلون لهم مقابِلَها جميع حريّاتهم المدنية والدينية.

أيباع الدين بدراهم معدودات؟!

فهل تتصورون أن قومًا يبيعون دينهم وعُرْفَهم ووطنيتهم بنصف دينار يدفعُه القادر عليه منهم، وليس على النساء ولا على الأطفال ولا العجزة ولا الرهبان ولا القسوس؟ لا شك أن الذين جَازُوا إلى الإسلام بعد الخيار بينه وبين الجزية، وجدوه أحبَّ إلى أنفسهم مما كانوا عليه.

مفارقات!

بل من الغريب أن الدينار الذي كان يعصم كلَّ عزيز لدى الأمم المفتوحة من سيف الإسلام، والذي كان أزهدَ شيءٍ عندها، كان أعزَّ على بعض ولاة المسلمين من إسلام هذه الأقوام، فكانوا يكرهون دخول الناس في دينهم ونقصَ جزيتهم! كتب والي مصرَ إلى ذلك الخليفة الزاهد عُمَر بن عبد العزيز يخبرُه أن المصريين مقبلون على الإسلام، وأن إيرادات الجزية تناقصت بسبب ذلك، ويطلبُ منه أن يأذنَ له في الاستمرار على طلب الجزية منهم.

ما بعث الله محمدًا جابيًا

فكتب إليه الخليفة تلك العبارةَ المأثورة: «قبّح الله رأيك! ما بعث الله محمدًا جابيًا، ولكنه بعثه هاديًا».

قصة تكشف عن روح عصرها

تلك الحادثة تقرّب لنا تصور الحالة الذهنية في القرن الأول لظهور الدعوة المحمدية، فلا بد أن قدْر

التسامح الديني كان على أعظم جانب، وأن حرية العقيدة كانت في أوْجها، وإلا فكيف تستطيع أن تتصور واليًا يكتبُ لخليفة المسلمين هذا الكتاب، إذا كان في المحيط الذي يعيش فيه أيُّ أثرٍ للتعصب أو الرغبة في قهر الناس على الدخول في الإسلام؟ إن تناوُلَ الموضوع بهذه الصورة دليلٌ على أن الواليَ الذي يُحِسُّ طبعًا بحسِّ البيئة، كان يكتبُ في شيء لا يظنه عجيبًا ولا يراه مُنْكَرًا. وإلا لكان هذا الوالي عُرضةً لفتك الجماهير، بل وانتقام الخليفة إرضاء لهذه الجماهير.

لم يعاقِب الخليفة واليه بعزله، بل كان ما كان، أن قبّح رأيَه، وهو الذي يحاول منع الناس من الإسلام احتفاظًا بدينار الجزية، فهل تتصورون أن ولاةً لهم هذه العقليةُ، وأن خليفةً له هذا التسامحُ مع ما اشتهر به بين خلفاء عصر كامل من التقوى، وأن أمة فاتحة مسيطرة تخيّر الناسَ بين البقاء على أديانهم ونظمهم مقابل جزية هي أقلُّ الضرائب بالنسبة لعصر كعصرنا هذا أو المساواة بالفاتحين، يَخْطُرُ لدعاتها وولاتها أن يتخذوا السيف وسيلةً للإيمان؟!

كلا، لم يكن السيف وسيلة للدعوة المحمدية، وإنما كان حاميَها من القهر والاضطهاد، وكان شعارُها: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

* * *

انتشار الدّعوة فى الأمم المسيحية

ماذا بين الموجة العربية وموجات الهون والڤندال والتتار؟

يظنُّ بعض من لا يعلم أنه لما جمع محمّدٌ ﷺ شتاتَ العرب، وقهر الوثنية في وسط الجزيرة العربية، طغت بعده جماعات الرعاة من قُساة البدو على الشمال والشرق للنهب والسلب، والقضاء على حضارة الروم والفرس، وعلى معتقدات هاتين الدولتين وقواهما التي كانت تصونُ المدنية القديمة ضدَّ طغيان الهمج من الشمال والشرق والجنوب، وأن ظهور العرب كظهور الهُون والڤَندال من الأقوام التي تدفقت من المشرق يسوقُها الجوع، ويُغريها الطمع، ويقويها الفخر بنسبها، أو كغيرهم من موجات المغول والتتر المتأخرين، وسيلتُهم العنف، وغايتُهم ما في أيدي الناس، ومِثْلُ هذا الظن بالعرب الحاملين دعوة الإسلام بعيدٌ كلَّ البعد عن الحق وعن ثابت التاريخ؛ فمع أن حَمَلَة الدعوة كانوا ممن غلبت عليهم البداوةُ، ومع أن أعراب الجزيرة كانوا من أرغب الأقوام في النهب وسفك الدماء، إلا أن الرسالة التي حملوها والشريعة التي دانُوا لها كانت أَمْلكَ لنفوسهم مما تعودُوه من الطمع والفخر؛ لذلك اختلفت آثارُهم عن آثار أشباههم من الأقوام التي استمر هاديها في فتوحاتها النهب والفخر.

موجة تحمل رسالة الهدى والعدالة

فقد أقام العرب دولةً امتدت من فرنسا إلى الهند والصين، وعرّبوا الأقوام وأدْمَجُوها فيهم، وهدَوْها بهديهم، فكان وفاؤهم للعهدِ واحترامُهم للشرع، وتحقيقهم معنى العدل مَضْرِبَ أمثال الأمم، وموضع عجب المؤرخين والمحققين؛ لذلك لم يُكْرِه هؤلاءِ البدوُ أحدًا على تغيير دينه، ولم يعاملوا الناس فُرَادى وجماعات إلا بقانون تواضعوا عليه مستمدًّا من نصوص الشريعة التي حملوا رسالتَها، أو من رُوحها، وقد لَقَّنُوا ذلك من دخل في دينهم من الأقوام المتبدّية، كالأتراك والبربر، فصار هؤلاء كذلك مثلًا للخضوع للشرع وللوفاء بالعهود والتسامح، بما لُقِّنوا من الأدب المحمديّ، صادقين في احترام أوامر دينهم متسامحين مع أهل الأديان الأخرى، بل يمكنُ القولُ بحق إنه فيما نعلمُ من تاريخ الأقوام والدعوات، لا توجد دعوةٌ صَحِبتها العدالةُ وسَعةُ الصدرِ والعفوُ والتسامحُ في عنفوانِها وضعفِها كالدعوة المحمدية، سواءٌ أكان العربُ أم التركُ هم الحاملون إياها.

موجة فذة في التاريخ

لقد غلبت النفوس الجامحة، وهذبت الأمم القاسية، وبقيت كلمةُ الله هي العليا، وأمرهُ المطاع، وهو الذي يقول لحملة الرسالة عربًا وعجمًا: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ﴾ [آل عمران: ٢٠].

في ساحة المسيحية

كانت المسيحية هي الديانة الغالبة في دولة الروم من جبال طورس إلى جبال الأطلس، أي في الساحة التي تشملُ اليوم سوريا ومصر وطرابلس الغرب وتونس، وكانت هذه الأقطار من أول ما حرر العرب في الدَّفعة الأولى أيام خلفائهم الراشدين، وأيام أن كان الحماس للدين الجديد في أوْجِ حرارته.

شهادة السير توماس أرنولد

وكان النصارى في الأقطار المفتوحة من مختلف الشعوب واللغات؛ فمنهم العربُ، ومنهم غير العرب، فماذا كان حكم الفاتحين في المغلوبين؟ ذلك ما ندعُ الكلام فيه للسير «توماس أرنولد» ذلك المؤرخُ والعالمُ الكبيرُ المختصُّ في هذا الموضوع.

انتشار المسيحية في ظلال الإسلام

يقولُ السير توماس في كتابه «انتشار الإسلام»: «حقًّا إن الكنيسة المسيحية قويت وتقدمت في رعاية المسلمين وحكمهم، فلم يَحُلِ الحكم الإسلاميُّ بينها وبين الانتعاش والرقيِّ، بل إن النساطرة لم تتفجر فيهم الحَمِيَّةُ والحماسةُ الدينيةُ إلا بعد أن دخلوا في حكم الإسلام بما لا عهد لهم به من قبلُ؛ فنشروا المسيحية تحت راية الإسلام، وبلغُوا بدعوتهم الصين والهند تحت حماية الخلفاء، وإذا لم يكن لغير النساطرة من أهل النصرانية ما لهؤلاء من النشاط والهمة في نشر دعوتهم الدينية، فليس هذا ذنب المسلمين ولا ذنب حُكّامِهم، فقد كانت جميعُ المذاهب المسيحية تتمتع بالرعاية والتسامح من الحكام المسلمين على حدٍّ سواء. بل كان هؤلاء الحكام هم الذين يمنعون اضطهاد بعض المسيحيين لبعض، ويكفلون الحرية الدينية للجميع»، وقد عدد السير توماس حوادث النكاية بين المذاهب المسيحية، وبيّن كيف كان الحكام المسلمون يتدخلون لإقامة العدل، وإنصاف المظلوم من غير تَحيُّز وبمنتهى التسامح، مما لا محلَّ للإطالة فيه الآن، ويمكنُ الرجوعُ إليه في صفحة ٦٠ وغيرها من كتابه السالف الذكر.

obeikandi.com

فرض مرفوض

كذلك بيّن أن ما يعرفه من التسامح والإحسان الذي امتد ظلُّه على الرعايا المسيحيين في العصر الأول(*)، وما ساقه من الأمثلة والوقائع، لا يسمح بما يفترضه كثيرٌ من الناس ظنًّا، وهو أن الأمم المسيحية دخلت في الإسلام قهرًا أو بحدِّ السيف، فذلك لا شك باطلٌ ولا مبرر له، وعلينا أن نبحث عن أسباب أخرى لتفسير إسلام المسيحيين.

الوزراء والولاة المسيحيون في دولة الإسلام

ويقول السير توماس: «تحت نظام من الأمن يكفل حرية الحياة والملك والعقيدة الدينية تمتع المسيحيون، وعلى الأخص في المدن بثروات ونجاح كبير في عصور الإسلام الأولى، فكان منهم أرباب النفوذ الواسع في قصور الخلفاء»، وقد ساق على ذلك شواهد كثيرة، من أطرفها أن أخوين مسيحيين «سلماوه وإبراهيم» وَلِيَا للخليفة العباسيِّ المعتصم مناصب الوزارة، ومنها بيتُ مال المسلمين، ولما مرض إبراهيم عاده الخليفة في بيته، فلما مات حزن عليه حزنًا شديدًا، وأمر بجثته فجيء بها إلى القصر وجرت المراسيم المسيحية والصلوات عليها في قصر الخلافة الذي شُيِّعت منه الجنازة! وذكر السير توماس من بين من ذكر من الوزراء المسيحيين، «نصر بنَ هارون»، الذي تولى رياسة الوزارة لعضد الدولة بن بويه، وبنى عددًا كبيرًا من الكنائس والمعابد.

الكنائس تشاد في رعاية الإسلام

وقد عدد كذلك أمثلة للتسامح في الكنائس التي أمر ببنائها الخلفاء، وأنفقوا عليها في شمال الجزيرة والعراق والشام، ولا يزال بعضها قائمًا إلى اليوم، ككنيسة «أبو سرجة» في مصر العتيقة، مما

(*) لا يفوتنا هنا أن نذكر القارئ باضطهاد الطوائف المسيحية لبعضها البعض، وعندما فتح عمرو بن العاص مصر كان مسيحيو بيزنطية يضطهدون المسيحيين المصريين حتى إن بطريركهم كان هاربًا لعدة سنوات حتى أمنه عمرو وأعاده. وكما ذكرنا سابقًا، طالت محاكم التفتيش التي تفتش عن عقائد المسيحيين في أوروبا عدة قرون، وحرقت وقتلت عشرات الآلاف في كل من إسبانيا وإيطاليا وفرنسا، ونشبت الحروب الدينية في أوروبا بعد ظهور البروتستانية بين البروتستانت والكاثوليك، وفي فرنسا وحدها نشبت تسع حروب بين ١٥٦٢ إلى ١٦٢٩، وأساس ذلك العقائدي أن الكاثوليكية ترى أنه لا خلاص خارج الكنيسة الكاثوليكية، حتى بين المسيحيين البروتستانت والأرثوذكس، بينما يرى البروتستانت أن البابا عدو المسيح، وأن الفاتيكان وروما تجسيد لغانية بابل أو بابل الزانية، وترى الطائفتان أن الأرثوذكسية هرطقة. ومن اللافت للنظر أن كتاب جون لوك الصادر في أواخر القرن السابع عشر، والذي يفخر به الغرب على أنه أهم كتاب التنوير، وأن رسالته تلك في التسامح هي فجر جديد للإنسانية، أن ذلك الكتاب يدعو للتسامح، ويستثنى من ذلك التسامح الكاثوليك واليهود والمسلمين، فهو تسامح بين الطوائف البروتستانية المتصارعة في عصره في إنجلترا.

obeikandi.com

بني في العهد الأول الإسلامي بالفسطاط، وليس أدلَّ على سعة الصدر من أن والي الأمويين في العراق وفارس «خالد القَسْرِيّ» بنى لأمه المسيحية كنيسةً لتتعبد فيها في العهد الأول للدعوة، وأيام صولة الفتوحات والحروب بين المسلمين والروم المسيحيين، ويمكنُ للذين يريدون تفصيلًا أوسع في هذا الشأن أن يرجعوا إلى كتاب السير توماس وما يشيرُ إليه من المراجع الأجنبية والإسلامية.

العرب المسيحيون يحاربون مع إخوانهم المسلمين

لقد كان بين العرب المسلمين وأولاد عمومتهم العرب المسيحيين من الإخاء والتسامح في عهد الفتوحات الأولى ما جعل نصارى العرب يقاتلون في الصفوف الإسلامية؛ انتصارًا لعروبتهم، واستجابة لعدالة أبناء عمومتهم، والتاريخ الإسلاميُّ متسفيضٌ بحوادث الأفراد والجماعات المسيحية في العراق والشام ومصر، التي احتفظت بدينها وساهمت في بناء الإمبراطورية العربية بجهدها ودمها.

بطولة عربي نصراني في واقعة البويب

ففي واقعة الجسر، لما زلزل جيش «المُثَنَّى» وحُصِر بين الفرات والجيش الفارسي، كان نصارى بني طي خير أعوان إخوانهم العرب المسلمين، فحمل زعيمهم حملة صادقة وحمى المَعْبَر للمسلمين، ولما عاد «المثنى» واستنجد الناس لمحو عار هزيمة الجسر كان بنو النمير المسيحيون من خير من أنجده؛ ففي واقعة البويب قاتل نصارى العرب جنبًا لجنب مع مسلمي العرب، وكان فخر اليوم لنصرانيٍّ من بني تغلب لحق بالمعركة أثناء اشتدادها، وقطع رأس زعيم الفُرس، وسلبه جواده، وفاز بالغنيمة، وركض راجعًا بين صفوف المسلمين يفخر بنسبه، وأنه من نصارى تغلب، والمسلمون يهتفون له ويحيُّون نجدته.

ولقد بقيت «تغلب» على نصرانيتها، وهي التي أبت الجزية، وطلبت أن تدفع الصدقة أسوةً بالمسلمين، فأمر عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لها بذلك قائلًا: «لا تُذِلوا العربَ، خذوا من بني تغلب الصدَقة».

وقد بين السير توماس أرنولد في كتابه سالف الذكر جملة أسباب لترك المسيحيين دينهم في العصور والأوطان المختلفة، وسرد الحوادث سردًا علميًا مدَّعمًا بالحجة القاطعة، وفي كل زمان ومكان تتكرر مفخرة المسلمين التي لا يدانيهم فيها أحد؛ وهي التسامح وسعة الصدر والإنصاف للمخالفين في العقيدة.

لم يكن السيف من أسباب دخول المسيحيين في الإسلام

وسواء أكان المسيحيون الذين تركوا دينهم قد فعلوا ذلك إعجابًا بالدين الجديد وبأصحابه، أم بُغضًا لما هم فيه من فرقة، أم يأسًا من الإصلاح، أم فرارًا من أذى بعضهم لبعض، أم إهمالًا من

قساوستهم ومرشديهم، أم طمعًا في دنيا، أم هدىً من الله، فإن هذه الأسباب المتنوعة والتي يشير إليها المؤرخون من أهل الملل الأخرى في تعليل إسلام المسيحيين، أدلةٌ على بُعدِ السيف عن ميدان العقيدة المحمدية.

وقائع اضطهاد عن استثناء يثبت القاعدة

نعم لقد وقعت في التاريخ الإسلامي بعض حوادث لا تخلو من اضطهاد المسيحيين، وأكثر ما يشار إليه من هذه الحوادث في أيام المتوكل العباسي، والحاكم بأمر الله الفاطمي، وبعض المماليك؛ والأول كان شديدًا على المسلمين أنفسهم، قاسيًا على المتشيّعة والمعتزلة من الفرق الإسلامية، والثاني كان بالعكس فاطميًّا قاسيًا على المسلمين من غير الشيعة، فإذا أصابوا لضيق صدرهم النصارى، فلهؤلاء فيما أصاب المسلمين أسوةٌ، ومع ذلك فنفس هذا الاضطهاد هو الاستثناءُ الذي يثبت القاعدة، ووقوع حوادث منعزلة قليلة في تاريخ أكثر من ألف سنة، هو الدليل القاطع على تسامح منقطع النظير، وتاريخ ناصع مشرِّف في سجلّ الأقوام والأديان.

السياسة والحسد الاجتماعي لا الدين

وأكثر حوادث الأذى التي أصابت بعض المسيحيين في أزمنة متباعدة، أثارتها نازعة حسد لما كان يتمتع به النصارى من ثراء كبير، ونفوذ قيل إنهم أساءوا به، أو نازعه خوف؛ فقد كان النصارى في بعض العهود ضالعين مع إخوانهم في الدين وراء الحدود الإسلامية، ومتجسسين متربّصين، فأصابهم بعضُ الأمراء، أو سلط عليهم العامة تخلصًا من أذاهم، وفي تاريخ مصر والشام والدولة العثمانية والأندلس حوادث متفرقة يمكن تَتَبُّعها ورَدُّها إلى السياسة لا إلى العاطفة الدينية، أو رغبة المسلمين في إكراه غيرهم على الدخول في دينهم، ومن مفاخر المسلمين المتفق عليها أن تاريخهم خِلْوٌ من القوانين الباطشة الجائرة التي حرّمت العقيدة الإسلامية في إسپانيا أيام فردناند وإزابيلا، وحرّمت البروتستانتية في فرنسا على عهد لويس الرابع عشر، وحرمت دخولَ اليهود في إنجلترا أربعة قرون(*).

برهان قاطع على تسامح المسلمين

ويقول السير توماس: «إن بقاء الكنائس والمذاهب المسيحية معزولة في الشرق الإسلاميِّ تلك القرون الطويلة، هو البرهانُ القاطع على تسامح الدول الإسلامية تسامحًا عامًّا».

(*) طردت أوروبا اليهود لعدة قرون بعضها من إنجلترا، وبعضها من فرنسا، وبعضها من إسپانيا، وقد قال اليهودي عضو الكنيست الإسرائيلي إن الإسلام حمى اليهود ألف سنة، وأن في عنق كل يهودي دين للإسلام بسبب ذلك. فانظر يا أخي كيف رد اليهود الدين؟!

لقاء ودي دائم في بلاد الإسلام بينه وبين المسيحية

لم يكن السيفُ إذًا وسيلة الإسلام إلى القلوب المغلقة، كما كان السيف والاضطهاد وسيلة لإنقاذ أرواح المسلمين واليهود وحتى المخالفين في المذاهب المسيحية، وكيف يكونُ ذلك في قوم عاهد نبيُّهم القبائل المسيحية، ووفى لها، وكفل حرية ملكها وعقيدتها وأمَّن رهبانها وقساوستها؟! وقد قال القرآن الكريم فيهم ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢].

التعصب الديني بضاعة غريبة

على هذا الأساس الصالح ترك الناس لضمائرهم ولهداية الله، فنشأت واستمرت علاقة أهل الشرق بعضهم ببعض، وستنمو على هذه القواعد، وتبقى مثلًا للذين أساءوا إلى الإسلام والمسيحية من متعصِّبة الغرب لضيق صدورهم وعدم إنصافهم، ويحقُّ لنا نحن الشرقيين مسلمين ومسيحيين أن نعتزَّ بهذه السيرة المحمدية، وأن نطالب الأقوام المتناحرة أن تهتدي بهَدْيِنا وتستنيرَ برُشْدنا(*).

* * *

(*) من يقرأ تاريخ أوروبا من بعد إعلان الإمبراطور قسطنطين مسيحيته ومسيحية الإمبراطورية في الربع الأول من القرن الميلادي، وحتى اليوم، يجده زاخرًا بكل أنواع التعصب: التعصب الديني، التعصب العرقي، التعصب العلمي (الزائف) على أساس الداروينية الشاملة القائلة بالبقاء للأصلح، وأن الحضارات القوية من حقها أن تسود، وتفرض نفسها على الحضارات الأخرى، أو تستأصلها إذا لزم الأمر. وكان ذلك ـ مع فكرة شعب الله المختار ـ الأساس الفكري للاستعمار، واستباحة الآخر، وإذا لزم إبادته واستئصاله، كما حدث في أمريكا، وفي إفريقية، وفي آسيا.

إسلام الصّليبيين

دور من الصراع بين المسلمين والمسيحيين

تغلبت دعوةُ التوحيد على كلّ ما عداها، ودارت بهذا البحر الأبيض المتوسط حتى عبرت جبال البرانس إلى فرنسا، فعرّبت شبه الجزيرة الإيبرية، ثم هزمت بيزنطة، ولفّت بالجناح الشرقيِّ حتى وصلت إلى شواطئ الأدرياتيك، فغلَّبت لغة الأتراك وأدبهم في جنوب أوروبا الشرقيّ، كما غلَّبت من قبلُ لغة العرب وعرفهم في جنوبها الغربيّ، وحظي من حمل لواء هذه الدعوة من القبائل العربية والتركية ممن أخلصوا لها بجزاءٍ من الله منقطع النظير! بسطةُ المُلكِ ودوامُه، وإقبال الدنيا حتى اندمج في هيئتهم ولغتهم وعنصرهم من الأقوام من هم أعرقُ منهم في العمران والمُلك.

تاج العرب والترك من بعدهم

وقد سبق للعرب وسبق للترك أن فتحوا ممالك، وأقاموا دولًا قبل أن يعرفوا محمدًا ويهتدُوا بهديه، فما عظم لهم شأنٌ ولا بقي لهم ذكرٌ محمودٌ، ولكنّ هاتين الأمتين المعروفتين بالقدرة على الغزو والقهر، والموصوفتين بالتوحش في التاريخ القديم، هذبتهما الرسالة المحمدية فمشتا إلى الأقوام المتحضرة والبادية، يهديهما شرعٌ واضحٌ في كتاب كريم، وأدبٌ عال قوامه الفضيلة، ونظام أساسه العدل، ودعامته خشية الله في عباده، فسحرتا المتقدمين والمتأخرين، وما زال الناس من الأقوام المنتصرة الأوروبية والآسيوية والإفريقية يتمثلون بمثلهما، حتى دخلوا أفواجًا في دعوتهما من غير قهر ولا أذى.

إسلام طوائف من الصليبيين

دخلت الأمم المسيحية مستجيبة لدعوى العرب والترك طواعية واختيارًا للجانب الأعزِّ بالحقِّ والمثل الأعلى في الأدب والفضيلة، ولعل من أظهر الأدلة على ذلك وأعجبها، إسلام طوائف من الصليبيين الذين حشدوا من كل جنس وجيل، وجاءوا المشرق تغلي صدورهم بالبغضاء، وتَقْطُر من أيديهم الدماءُ، حتى ذبحوا نفس النصارى في طريقهم ممن لم يَنْشَطْ لدعوتهم، أو ممن خالف رأيهم، أو كان على غير مذهبهم في المسيحية، هؤلاءِ العتاةُ القساةُ ما لبثوا أن اقتبسوا أدب أعدائهم، فاتسعت صدورهم، وتهذب تعصبهم، وتعلموا ممن يبغضونهم التسامح، فصار القادمُ عليهم مددًا من الغرب ينكر ما يجدهم فيه من أدب سما على البغضاء والحقد.

في الحرب الصليبية الأولى

بل إن كثيرًا من زعماء الصليبيين وكثيرًا من عامتهم الذين قطعوا الأرض لقطع رقاب المسلمين، ارتَمَوْا في أحضان الدعوة التي غامروا كل مغامراتهم للقضاء عليها منذ أول تعارف؛ ذلك هو أعجب آثار التسامح!.

في الحرب الثانية

فقد أسلم في الحرب الصليبية الأولى ممن أسلم «رينود» أميرُ طوائف الجرمان واللمبارديين، وأسلم معه خلقٌ كثيرٌ منهم، وأسلم في الحرب الصليبية الثانية، كما يروي السير توماس عن راهب من رهبان سنت دنيس كان قسيسًا في المعبد الخصوصيِّ للملك لويس السابع، ورافقه في هذه الغزوة طائفة كبيرة، وإليكم ما يقوله الراهب في عبارة شائقة:

رواية راهب عن إسلام ثلاثة آلاف صليبي

«وفي طريق الصليبيين إلى المَقْدِس، عبْرَ جبال الأناضول، التَقَوْا بجيش المسلمين؛ فَهُزِم الصليبيون شرَّ هزيمة، وكان ذلك في الممرِّ الجبليِّ «فريجيا»، وذلك سنة ١١٤٨، ولم يصلُوا إلى مرسى «أضاليا» إلا بشِقِّ الأنفس، ومنها استطاع القادرون بعد تلبية طلبات التجار اليونانيين الباهظة أن يَرْحَلُوا إلى أنطاكية بحرًا، وقد دفعوا مبالغ طائلةً، وتركوا خلفهم الجرحى والمرضى والحُجَّاجَ، فدفع كذلك لويس خَمْسَمِائةِ مارك لليونانيين على أن يُعْنَوْا بهؤلاء الضعفاء حتى يُشْفَوْا، وعلى أن يرافقهم حرس اليونانيين حتى يلحقوا بمن سبقهم.

القسوة الغادرة بالإخاء

فما كان من اليونان الغادرين إلا أن تربصوا حتى تباعد جيش الصليبيين، واتصلُوا بالمسلمين الأتراك وأخبروهم بما عليه الحُجَّاجُ والجرحى، ممن تخلّفوا من الوهن والعجز، ثم قعدوا ينظرون إلى إخوانهم في الدين ينال منهم البؤس والمرض وسهام المسلمين، ولما ضاق الصليبيون المتخلفون ذَرْعًا بما أصابهم، خرج ثلاثةُ آلاف أو أربعة من قلعتهم محاولين النجاة بأنفسهم، فحصرهم المسلمون وشَدُّوا عليهم، ثم حملوا على المعسكرات الصليبية، وكان حال من خرج ومن بقي في المعسكر ليس فيه أقلُّ رجاءٍ، ولم يُنْقَذُوا إلا بما نزل في قلوب المسلمين من الرحمة، حين اطَّلَعُوا على ما فيه عدوُّهم من بأساء، وما أصابهم من ضراء.

الرحمة المنقذة للأعداء

رقّت قلوبُهم وذابت نفوسهم رحمةً لأعدائهم الصليبيين المساكين، فواسَوْا المريض، وأحسنوا للفقير، وأطعموا المسكين بسخاء وكرم، وبلغ من إحسانهم أن بعضهم استردَّ بالشِّراء أو الحيلة أو القهر النقود الفرنساوية التي أخذها اليونان من الحجاج، وردّها عليهم، ووزعها على المحتاجين من الصليبيين، وقد كان الفرقُ واضحًا بين معاملة هؤلاء الكفار ـ يقصد المسلمين ـ للحجّاج المسيحيين، ومعاملة اليونان الذين سخّروا إخوانهم في الدين، ونهبُوا أموالهم وضربوهم، كان الفرقُ عظيمًا لدرجة حملت الصليبيين على اعتناق دين الأعداء المنقذين، ومن غير أن يُكرَهوا أو يُقْهرُوا، لقد فرُّوا من إخوانهم في الدين الذين أساءوا إليهم، فلحق ثلاثة آلاف بالجيش الإسلاميِّ بعد أن رجع عنهم ودخلوا في دينه.

رحمة أشد قسوة من الخيانة!

لقد كانت الرحمة أشدَّ قسوة من الخيانة! لقد أعطاهم المسلمون الخبز وسلبوهم الإيمان، واحسرتاهُ! لقد ارتدُّوا عن المسيحية من غير أن يُجْبَرَ واحدٌ منهم على ترك دينه».

احتكاك أفاد الصليبيين

ذلك ما يقوله الراهب، ويقولُ السير توماس: «لقد كان اختلاط النصارى الصليبيين بالمسلمين ينمُو على ممرِّ الأيام، وينمو معه الاحترامُ والتقديرُ بمزايا عدوِّهم وفضائله، وتزايد تقليد الفرنجة النازلين في فلسطين للمسلمين تزايدًا كان له أثرٌ واضح على أفكارهم الدينية، وأظهر هذه الآثار ذلك التسامح الدينيُّ الذي أخذ يتصف به كثير من فرسان الصليبيين وأمرائهم، وذلك الصدرُ الرحْب الذي أخذوا يتلقَّوْن به التعاليم المحمدية، حتى إن الأمير السوريَّ «ابنَ مُنْقِذ» لما زار بيتَ المقدس أثناء بعض الهدنات كان أميرُ الصليبيين على المسجد الأقصى يأذَنُ له بإقامة صلاته في المعبد، فعجب الصليبيون الجُدُد لهذه الحالة العقلية، واحتجُّوا عليها.

تبادل الأسوة الحسنة

ولكن الصليبيين الذين أثر فيهم جوارُ الشرق كرهوا أن يتدخل أحدٌ في حرية ضيفهم الدينية، ولم يردَّهم عن هذا التسامح الذي تعلموه في الشرق حَرَج الكنيسة وغضبُها في الغرب»، ثم قال: «لقد اجتذبت الدعوة المحمدية إلى أحضانها من الصليبيين عددًا مذكرًا حتى في العهد الأول، أي: القرن الثاني عشر، مما يلفتُ نظر من يطَّلِعُ على سجلاّتِ الصليبيين».

obeikandi.com

تأثير الإعجاب بصلاح الدين

ولقد بلغ تأثير الإعجاب بشجاعة صلاح الدين وفضائله في الصليبيين أن كثيرًا من أمرائهم وعامَّتهم المُعجَبين به ذهب بهم هذا الإعجابُ إلى ترك دِينهم وأهلهم والدخول في الإسلام.

أمراء كثيرون يسلمون

مثلُ ذلك ما فعل الزعيم الإنجليزيُّ «روبرت سنت أليان»، وكان ذلك قبل انتصار صلاح الدين في معركة حِطّين الفاصلة التي وقع فيها ملكُ القدس «جاي» أسيرًا، ويقول بعضُ مؤرخي النصارى: إن ستةً من أمراء هذا الملك استولى عليهم الشيطان ليلة المعركة فأسلموا، وانضموا إلى صفوف الأعداء دون أن يقهروا من أحد على ذلك، وقد وصل الأمر بـ «ريمون الثالث» أمير طرابلس الشام أن اتفق مع صلاح الدين على أن يدعو قومه إلى الإسلام.

صليبيون يقاتلون في صفوف المسلمين

وحتى بعد صلاح الدين لما قام الصليبيون بحربهم الثالثة انتقامًا لسقوط بيت المقدس، وحاصروا عكا، وأصابتهم البأساءُ، وعضَّهم الجوع، فرّ كثير إلى صفوف المسلمين؛ فمنهم من آمن، ومنهم من رجع إلى قومه، ومنهم من استمر على نصرانيته، واختار البقاء، وأن يقاتل في صفوف المسلمين، وفي هذا المعنى يقول «چون ماندفيل» أحدُ المعاصرين للصليبيين: «كان بعضُ المسيحيين يرتدُّون عن دينهم ويصيرون عربًا؛ لفقرهم أو غباوتهم أو شقاوتهم»، ولا يُنتظر بالطبع من صليبيٍّ مثل چون أن يفسّرَ ما يسمّيه المسلمون بالهداية إلا بالغباوة والشقاوة، والذي يعنينا من الأمر أن الفقراء والأغبياء والضالّين الذين ذكرهم ماندفيل دخلوا في الإسلام الذي جاءوا لمحوه مختارين، واجْتُذِبُوا إليه بالدعوة والإرشادِ، لا القهر والاضطهاد، بل إنّ بعض المؤرّخين المسيحيين المعاصرين للفتح الإسلامي واسترداد بيت المقدس، وبعد ذلك بكثير بعد انهيار دُوَل الفرنجة في الشام كلِّها، يُشيرون إلى فرح النصارى بالتحرّر من حكم الصليبيين.

فرح نصارى الشرق بزوال حكم الصليبيين

ويقولُ السير توماس في هذا المعنى: «لقد سكنوا إلى الحكم الإسلاميّ وادعين مستبشرين، كما استمر الحكامُ المسلمون على عادتهم القديمة من التسامح وسعة الصدر لأهل الملل الأخرى».

شواهد أخرى من الشرق البعيد في العهد الأموي

وإذا كان ما ذكرنا هو بعض الشواهد على انتشار الدعوة المحمدية بالحجة بين أشدِّ خصومها المحاربين، وفي أحلك أيام الدولة الإسلامية، أيام غارات الصليبيين والتتر، فإن لنا شاهدًا آخر من

obeikandl.com

بطريق خراسان في أعزِّ أيام الدولة الأموية العربية، نختتمُ به هذا الفصل، يقولُ البطريقُ «يوساب الثالث» اليعقوبيُّ في خطاب طويل بعث به لحَبْر زميلٍ: «أين أبناؤك أيها الأب! أين هذا الشعب العظيم شعب مَرْو! لم تصبهم جائحة ولا سقطوا للسيف، ولا عذِّبوا بنار، وإنما أصابهم متاعُ الدنيا، فارتدّوا عن دينهم، وقذفوا بأنفسهم كما يَقْذِفُ المجانينُ في مهاوي الهلاك والكفر، فلم ينجُ من هذا السعير إلا قسيسان اثنان فرًّا بنفسيْهما من جحيم الكفر ـ أي: الإسلام ـ واحسرتاه على الآلاف المؤلَّفة الذين حملوا اسم المسيحية وصفتَها، ولم يقعْ منهم شهيدٌ واحد ولا ضحى واحد منهم لدينه!!.

أين كذلك بِيَعُ كِرْمانَ وكنائسُ فارس! لم يكن قدوم شيطان ولا ملك ولا أمير، ولا أمر خليفة أو سلطان هو الذي قضى عليها، لم يكن ساحرًا موهوبًا أوتي المنطق وسلطة الشيطان على النفوس، ولكنه ساحرٌ هز رأسه فقط فخرّت كنائسُ فارس كلها على الأرض!.

سلوك كريم في كل مكان وزمان

أما العربُ الذين آتاهم الله ملكَ الدنيا كما تعلمُ ـ فإنهم عندَك كذلك ـ فلم يطعنوا في ديننا ولا اعتدَوْا على بِيَعنا، بل بالعكس ضالَعُوا مع ديننا وفضّلوه على غيره، وأكرموا رهباننا وقساوستَنا، واحترموا أولياءنا، وأحسنُوا الهبات إلى معابدنا، فلماذا إذًا هجر أهل مَرْو نصرانيتَهم زُلْفَى لهؤلاء العرب، وهم يعلمون ويقولون إن العرب ما طلبوا منهم تغيير دينهم، بل أقرُّوهم عليه كاملًا، ولم يسألوهم إلا ضريبة بسيطةً يؤدُّونَها عن أنفسهم، ولكنهم اشترَوْا خلودَ أرواحهم في دين المسيح بمتاعٍ قليلٍ؟!».

أساس قرآنيّ لم يختلف باختلاف العصور

هل هناك بيانٌ أوضحُ من هذا البيان عن نفاذ الدعوة المحمدية بالحجة إلى قلوب المسيحيين؟ لقد سقنا لك الشواهد من المشرق والمغرب في القرن الأول، وفي القرن السابع، في المحاربين والمهادنين. لقد اختلف كلُّ شيء، اختلفت الأممُ والقرونُ والظروفُ، ولم يختلف الحقُّ الذي ساير هذه الدعوة منذُ ظهورها، والذي وضع أصله القرآنُ في قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

هل من نهضة للحق والحرية يقوم بها المسلمون والمسيحيون في الشرق؟!

وحقَّ لنا نحن سلالةَ الأقوام العادلة المنصفة الحليمة الرحيمة في المشرق، مسلمين ومسيحيين، أن نطمع في نهضة جديدة نكونُ فيها مُثُلًا ودعاةً لحرية العقيدة وحرية الرأي في عالم ضاق صدرُه بالمخالفين في الرأي، لقد كان آباؤنا حماة هذه الحرية ومُثُلَها العليا، فلنكن نحن ورثةَ هذا الصبر عليها، وحَملةَ رايتها في أمة ناشئة ودولة جديدة.

* * *

إسلام الأوروبيين

تاريخ مشرف لنا وتاريخ غير مشرف لغيرنا

يصحَبُ نشر الدعوة المحمدية في أوروبا الشرقية وأوروبا الغربية تاريخ جديد بالذكر الحسَن، وحقيقٌ بفخر المسلمين، كما يصحَبُه مع الأسف من الناحية الأخرى حوادثُ لا حصر لها من أمثلة السوء الدَّالَّة على ضيق صدرو كثير من الأوروبيين، وعلى التجائهم في سبيل تأييد آرائهم الدينية إلى أردأ الوسائل وأنكر الأعمال!

مزاج قاسٍ وصدر ضيق

ومع أن الذين رفعوا راية الإسلام في الغرب من ناحية إسبانيا وفرنسا وإيطاليا، كانوا من العرب والبربر، وهم أقوامٌ اشتهرت كلها بالبأس والشدة، فإن تاريخهم من ناحية نشرهم الدعوة المحمدية، وتسامحهم الديني، هو أظهرُ ما في صفحات مجدهم وأحقّها بالفخار، وذلك على عكس الأقوام الأوروبية؛ فقد كان ينتظم بَرُّها وفاجرُها في سلسلة الفظائع الدموية التي اقترنت بمقاومة الدعوة المحمدية، والقضاء عليها في أوروبا الغربية والشرقية في مدى مئات السنين.

ومما يصعب أن نجد له تفسيرًا أن القسوة التي كانت وسيلة الأوروبيين في القضاء على حضارة المسلمين ودينهم في إسبانيا وفرنسا وإيطاليا أو في شرق أوروبا، لم تتخلّفْ عن الظهور بأشنع مظاهرها حتى ضدّ النصارى أنفسهم كلما وقع نزاعٌ حادٌّ على رأيٍ في الدين، أو دعوة من الدعوات المسيحية، أو ضدّ اليهود.

وليست الأقوام الأوروبية كلُّها جنسًا واحدًا، ولا من بيئة واحدة، ولا طبيعة واحدة؛ فبينَها من الخلاف في الجنس واللغة والطبائع ما بين أمم الشرق؛ فماذا وحّد إذًا وسائلها، وجعل الفتك والغيلة والغدر والظلم من أظهر هذه الوسائل لإعلاء دين على دين؟.

مفارقات بين البدو المسلمين والحضر المسيحيين

وماذا جعل أقوامًا بادِيةً كالعرب، وأقوامًا صناعتُها القتالُ كالترك والتتر والبربر، تختارُ لنشر دينها الحجة والقدوة؛ فلا نجدُ في تاريخ طويل شمل المشرق والمغرب أكثر من ألف سنة حوادث دموية تشبه عن قرب أو بعد تلك الفظائع الساحقة التي تتكرر على ممرّ الزمن على أيدي الأوروبيين في أنفسهم، أو مع أهل الملل الأخرى؟!.

المسيح البريء من روح التعصب الغربي

لا نجدُ لذلك تفسيرًا نجزمُ به؛ فالسيد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، هو ضحيةُ العنف، ومن خير من دعا إلى المعروف والسلام، ودعوته تحرِّمُ الحرب والقتل تحريمًا قاطعًا؛ فليس دينُ المسيح هو الذي بثَّ روح التعصب الممقوت، ولا هو الذي حوّل مزاج الغربيين إلى مِزاجٍ سفّاح.

النزعات البشرية القاسية بين إطلاق المسيحية وتقييد الإسلام

أما الدينُ الإسلامي قد أباح القتال، وظهرت دعوته في العالم مصحوبة بتلك الفتوحات التي لم تقف في وجهها شاهقاتُ الهملايا، ولا شاهقات الأطلس والبرانس والبلقان، فلماذا كان أصحابه أكثر الناس تسامحًا مع رعاياهم من أهل الأديان، وأوسعهم صدرًا للملل والنِّحَل؟!.

أثر تركيز الدين في النظام الكهنوتي

لعل السبب بينهما ناشئ من اختلاف النظم الدينية؛ فإن للمسيحيين نظامًا إِكليريكيًّا، أو بعبارة أخرى كهنوتيًّا جعل عليهم قُوّامًا من طوائف رجال الدين[1].

الحرية في فهم القرآن لدى المسلمين والقيود في فهم الإنجيل لدى المسيحيين

وكذلك لم تكن المسيحية واضحةً في شئون الدنيا، فتسلطت النزعةُ البشرية، أما الإسلام فحرَّم هذه القوامة، ولم يسمح بصلة بين العبد وربّه غير صلة الضمير، وكانت أوامرهُ ونواهيه في شئون الدنيا

---

(١) من أقوال آباء الكنيسة: الكنيسة هي المسيح، والبابا هو الكنيسة ـ البابا ممثل المسيح ـ البابا تجسيد للمسيح. وجدير بالذكر أن المسيح هو الله في المسيحية!

جليَّة. فلعل سيطرة العنصر البشريّ على العقيدة هي التي أخرجت هذا الفرْق الهائل في مزاج الأقوام الدينيّ، الذي نشهدُ مظاهره طول الدهر وفي كلِّ مكان.

الحلال والحرام بين في الإسلام لدى الخاصة والعامة

وأيضا كان وضوح الأوامر الدينية عند المسلمين؛ مما جعل كلًّا من الحلال والحرام بيّنًا في كتاب مبين؛ فالخاصّة والعامّة يعلمون أن الله قد حرّم عليهم الإكراه في الدين، ويعلمون أنه يقول لنبيِّه ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

آدب القرآن مع المخالفين

بل إن الدين الذي حرم على أهله سبَّ الأديان الأخرى، لا يدعُ سبيلًا للاضطهاد والظلم. يقولُ تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٠٨﴾ [الأنعام: ١٠٨].

بساطة الدخول في الإسلام تعصم الدماء والأموال

لعل كذلك من أسباب تَكَوُّنِ هذا المزاج المتسامح بساطة العقيدة المحمدية، فإنها تقوم على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وأن هاتين الكلمتين تعصم الدماء والأموال. فلما درج الناس على هذه البساطة وتركوا ما وراء ذلك لحساب الله، تعودوا التسامح وسعة الصدر، بعضهم مع بعض، ومع من خالفهم من أهل الملل الأخرى.

قد تكون هذه الأسباب، وقد يكون غيرها علة الخلاف الجوهري بين مزاج المسلمين ومزاج الأوروبيين الديني، وليس هذا مقام سرد تاريخ طويل لبيان ما نشير إليه من خلاف، فهو هين على من أراد أن يتبين الحق، ولكن قد يحسن سوق بعض الشواهد:

من تاريخ تعصب المسيحيين في إسبانيا

لما دخل العرب إلى إسبانيا كان مجمع طليطلة السادس قد قرر أن يُقسم الملوك عند تولى سلطتهم أن لا يطيقوا في ملكهم من لا يتمذهب بمذهب الكاثوليك، وأن ينفذوا القانون بكل شدة على من

يخالف، وكان من ضمن هذه القوانين السجن المؤبد، مع مصادرة الملك لكل من يفكر في مناقشة أوامر الكنيسة، وتعاليم الكثلكة، ويقول «بودسين»: «كان للإكليروس السيطرة التامة على شئون الدولة؛ ففضلًا على ما للأساقفة من رأي نافذ في جميع مجالس الحكم؛ قد كان لهم حق التصديق على انتخاب الملك، وحق خلعه إذا خالف ما يرسمون من قوانين، ولقد اتخذ الإكليروس من سلطانه سبيلًا لاضطهاد اليهود الذين كانوا عنصرًا مهمًّا في إسبانيا»، ويقول «هلفريخ»: «إن أوامر وحشية صدرت لتعميد من يأبى الارتداد عن دينه من اليهود.

فرار المضطهدين إلى الإسلام

فلما وصل العرب تلقَّاهم اليهود بالترحيب الذي يستحقُّه المنقذون، وكذلك فرح العبيد المتنصرون لقدوم العرب شديدًا، فأخذ المضطهدون يدخلون في دين العرب أفواجًا، بل أخذ النبلاء والعامة يقبلون على الدعوة الجديدة الحرة»، ويقول السير توماس أرنولد: «لقد أصبحت الطوائف الكثيرة التي اعتنقت الدين الإسلامي مختارة، من أشد أنصاره تحمسًا وأظهرها زهدًا؛ فكانوا يمثلون الطهر والتقشف، حتى صار الفرق بينها وبين الأرستقراطية العربية التي مالت للترف واضحًا».

تسامح الفاتحين وعدم ترفعهم عن المخالطة

ولم يسمع في أيام الفتح العربي بأية محاولة من الفاتحين للإكراه في الدين، أو الاضطهاد والظلم لتغيير العقيدة، ولعل السبب الأول في امتلاكهم السريع لهذا الجزء من غرب أوروبا هو سعة الصدر والتسامح الذي كان ديدنهم، كما أن تسامح الحكام بما أباحوا من الحرية الدينية للمسيحيين واختلاطهم بهم وتزاوجهم معهم، أدى إلى تعريب واسع للعناصر المسيحية، فاتخذ كثيرون من النصارى أسماء عربية، وتختَّنوا كجيرانهم المسلمين.

استعراب واندماج

وتسمية المسيحيين الذين في حكم العرب بكلمة Muzarabe، أي: مستعرب، تشير إلى الاتجاه الذي اتجهت إليه جماعتهم. ولقد بلغ من إعجاب النصارى المتعربين بلغة القرآن أن صاروا يتلونه ويعجبون به، بل لقد بلغ أثر هذه الدعوة إلى رؤساء الكنيسة نفسها، فتلقحت أفكارهم في إسبانيا وخارجها بالنظريات الإسلامية.

كل ذلك يفسر لنا ما كان للمثل والقدوة مع نشاط الدعوة من الأثر في خروج المسيحيين عن دينهم، حتى صارت الأكثرية الكبيرة للإسلام في زمن قصير.

دخول في الإسلام حتى في وقت سقوط دولته

وقد بلغ من أثر القدوة الحسنة والدعوة بالحكمة أن المسيحيين لم ينقطعوا عن الدخول في الإسلام، حتى وأهله يرسفون في المظالم الوحشية، فيشردون ويقتلون ويهجرون من أوطانهم، ومن أغرب ما روي في ذلك ما ذكره «سترلنج ماكسويل» عن حوادث ١٤٩٩، أي بعد سقوط غرناطة بسبع سنين؛ فقد أشار إلى مسلمين جدد دخلوا في الإسلام، وهاجروا في جموع الفارين من السيف والنار.

هزيمة العرب في فرنسا سببت تأخر وصول الحضارة إلى أوروبا ثمانية قرون

وليس المقام مقام تفصيل، وإنما أردنا الاستشهاد لسيرة كريمة معترف بها من جمهور المسيحيين عن حكم العرب في غرب أوروبا، وما تمتع الناس به من حرية العقيدة، وما كسبوا من علم وعرفان وحضارة في ظل الآداب والأوامر والنواهي الإسلامية، ولقد بلغ من اعتراف المنصفين بهذه الحقيقة أن أحد المؤرخين قال عند ذكر واقعة «بواتيه» التي قتل فيها «عبد الرحمن الغافِقيّ» وفازت جيوشُ «كارل مارتل»(*) على العرب في غرب فرنسا: «لقد كانت هزيمة العرب سببًا في تأخر وصول الحضارة لأوروبا ثمانية قرون»!.

فازت جيوش الهمج من الأوروبيين على العرب في القرن الثامن فأخرت الحضارة، وفاز الغلاة المتعصبون من الفرنج مرة أخرى فوزًا ساحقًا في القرن الخامس عشر، فقضوا على العرفان والحضارة، وفي الوقت الذي كانت محاكم التفتيش وسيوف الدولة تسوق إلى المذبحة أو إلى البحر رسل الحضارة في الغرب، وتخلي أوطانًا بأكملها من أهلها، وفي الوقت الذي تسقط فيه غرناطة ويمحى أثر مائتي ألف مسلم بها، وجلهم من أهل إسبانيا نفسها ومن عنصرها الأصلي، ذبحًا وطردًا وتشريدًا، كانت جيوش الإسلام الظافرة تحت راية أخرى تفتح الممالك الأوروبية الشرقية، فيستظل المسيحيون بظل العدالة الجديدة، وينعم الناس بحرية الضمير وحرية الأديان.

(*) أو شارل كما في كثير من المصادر التاريخية المعتمدة.

سقطت بيزنطة مركز العداوة للمسلمين، ومبعث العواصف على الأوطان الإسلامية مدة ثمانية قرون، فما استبيحت الحرمات الدينية، ولا تسلط الفاتحون على العقائد والأديان، ولا طرد الناس من أوطانهم وحوسبوا على نياتهم وضمائرهم.

سلطات وامتيازات للمسيحيين في دولة الأتراك

ولندع الكلام للمؤرخين المسيحيين: فرنتز، وفنلي، وبتزيبوس، ودهسون، كما لخصه أرنولد: «كانت أولى الخطوات التي اتخذها «محمدٌ الثاني» بعد الاستيلاء على القسطنطينية أن طمأن المسيحيين بالتعهد بحماية الكنيسة الأرثوذكسية، ومنع منعًا باتًّا اضطهاد النصارى، وصدرت الإرادة السنية بأن يكون للبطريرك والأساقفة في النظام الجديد جميع الحقوق والامتيازات التي كانت لهم في النظام السابق للفتح، واستلم البطريرك «جناديوس» من يد السلطان الأداة التي كانت شارة ولايته، ومعها ألف قطعة من الذهب، وحِصانٌ مُطهَّمُ بعدة فاخرة ليركبه في موكبه في المدينة، ولم يهب السلطان لرأس الكنيسة المسيحية الامتيازات التي كانت له في عهد الإمبراطور المسيحي فحسب، بل مكنه من سلطة مدنية واسعة على الرعايا المسيحيين؛ فكان مجلس قضاء البطريركية هو الذي يفصل في منازعات المسيحيين ويقضي بالغرامة والحبس والقتل، وكانت حكومة السلطان تنفذ ما يقضي به مجلس البطريركية؛ فكان للبطريرك السلطة المطلقة في الشئون الروحية، ولم تتدخل قط في هذه الشئون السلطات المدنية الإسلامية، كما كانت تفعل المسيحية قبل الفتح، ولما كان البطريرك معتبرًا من كبار رجال الدولة في نظر السلطان، ومعترفًا به، فقد كان له أن يتدخل لرفع الظلم الذي يقع من بعض الولاة على النصارى باتصاله مباشرة بالسلطان، وكان للأساقفة في الولايات من الحرمة والسلطة مثل ما للبطريرك في العاصمة، حتى انتهى الأمر إلى أن صاروا في مناطق سلطانهم الديني كأنهم مأمورو الدولة وولاتها، فحلوا محل الأرستقراطية البيزنطية التي انقرضت بسقوط دولتها».

العمى عن الأسوة الحسنة

ذلك ما فعل المسلمون في المشرق، وقد سقطت غرناطة للإسبان بعد سقوط القسطنطينية للترك بأربعين سنة؛ فهل كان للفرنجة فيما فعل المسلمون أسوة؟ وإذا لم يكن لهم في الماضي الطويل من التسامح المنقطع النظير، ما يوجههم وجهة الإنصاف والرحمة، فَلِمَ لم تكن لهم عظة فيما بين أعينهم من

مثل عال؟ كان ذلك كما قلنا سابقًا لأسباب عدة أشرنا إلى بعضها، وقد يستطيع غيرنا أن يبين أسبابًا آخرى. وهي في نظري ليست في طبيعة الدين المسيحي؛ فإن سيدنا عيسى ما جاء إلا رحمة للعالمين.

هو المزاج الغربي الدموي دائمًا!

وإذا كانت كل حوادث التاريخ تشير إلى أن المزاج الغربي يجنح دائمًا إلى القهر والتدخل في شئون الغير الروحية والمعنوية تدخلًا ينتهي بالمظالم والإسراف في سفك الدماء، فليس من الغريب أن نرى في الحرب الأخيرة والتي قبلها من مظاهر هذا المزاج صورًا من الماضي، وقد حل النزاع الأيديولوچي «الفكري» في هذا القرن محل النزاع الديني في القرون الوسطى.

آمل في رحمة الله!

(وبعد) فهل يكتب لسكان الشرق من المسلمين والمسيحيين الذين تتعلق نفوسهم دائمًا برحمة الله، وترتقب هداه إذا اشتدت الكروب والظلمات، أن ينهضوا مرة أخرى بميراثهم السامي الذي يقوم من عوج النزاع الفكري والاقتصادي والعنصري، ويلطف من حدة المزاج الغربي، حتى يؤمن بالأخوة الإنسانية، ويعمل لخدمة السلام العام بإخلاص نية وحسن توجه، بما مكن الله له في الأرض؟.

ذلك ما نسأل الله رب العالمين أن يعجل بتهيئة أسبابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

* * *